

الفصل الأول

فَهْـترة الولاة

١ - فترة منازعات وحروب :

أهم ما تتسم به فترة الولاة من الناحية السياسية أنها فترة منازعات وحروب^(١)، فهي فترة الفتح وما يتبعه من تأكيد سلطان الفاتحين بتتبع الفارين والمناوئين؛ ثم هي فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر أولاً، ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانياً. وهكذا شهدت تلك الفترة من تاريخ الأندلس كثيراً من الحملات الحربية. التي كانت تسير إلى لقاء الفرنجة عبر البرانس حيناً، وإلى لقاء الإسبان في الأقاليم الشمالية من شبه الجزيرة حيناً آخر. كذلك شهدت تلك الفترة كثيراً من الثورات، يقوم بها البربر ضد العرب تارة، ويشنها بعض العرب ضد واليهم تارة أخرى، وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين والياً^(٢) قاموا بالأمر تباعاً في الأندلس خلال تلك الفترة، التي لا تبلغ نصف القرن. وهذا وحده كاف في

(١) انظر: أخبار مجموعة ص ١٩ - ٥٨. وابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠ -

١١. وابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ - ٥٦.

وانظر أيضاً: Levi: Espana musulmana, pp. 22 ff.

(٢) هؤلاء الولاة هم: طارق بن زياد (٧١٠ - ٧١١) م وموسى بن نصير (٧١١ - ٧١٣) وعبد العزيز بن موسى (٧١٣ - ٧١٥) وأيوب بن حبيب (٧١٥ - ٧١٥) والحر بن عبد الرحمن (٧١٥ - ٧١٨) والسمح بن مالك (٧١٨ - ٧٢٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (٧٢١ - ٧٢١) وعنبية بن محم (٧٢١ - ٧٢٥) وعذرة بن عبد الله الفهري (٧٢٥ - ٧٢٥) ويحيى بن سلمة الكلبي (٧٢٥ - ٧٢٨) وحذيفة بن الأحوص (٧٢٨ - ٧٢٨) وعثمان بن أبي نعمة (٧٢٨ - ٧٢٩) والهيثم بن عبيد (٧٢٩ - ٧٢٩) ومحمد بن عبد الله الأشجعي (٧٢٩ - ٧٣٠) وعبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية (٧٣٠ - ٧٣٢) وعبد الله بن قطن (٧٣٢ - ٧٣٤) وعقبة بن حجاج (٧٣٤ - ٧٤٠) وعبد الملك بن قطن للمرة الثانية (٧٤٠ - ٧٤٠) وبلج بن بشر (٧٤٠ - ٧٤١) وثعلبة بن سلمة العامل (٧٤١ - ٧٤٢) وأبو الخطار حسام بن ضرار (٧٤٢ - ٧٤٤) وثوابة بن سلمة (٧٤٤ - ٧٤٤) وعبد الرحمن بن كثير (٧٤٤ - ٧٤٦) ويوسف الفهري (٧٤٦ - ٧٥٥).

تصور ما كانت عليه سياسة الأندلس في هذه الفترة من اضطراب وعدم استقرار . فالحكم الإسلامي كان لا يزال في طور البدء بتلك البلاد ، ولم يكن قد أصاب حظاً من الاستقرار المطمئن بعد ، ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية ، التي تلوذ بها جماعات فارة متربصة . كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها ضد الفرنجة فيما وراء البرانس . وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق دائم في تلك الفترة من حياتهم بالأندلس ؛ فالعرب قد تفردوا بالسهول الحصينة ، وجعلوا منهم الولي وغيره من حكام الأقاليم ، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية ، وحرروا من الولاية وبما يشبه الولاية من رياسات . والعرب أنفسهم قد جاءوا إلى الأندلس بعصبياتهم ولم ينسوا العداوات القديمة بين عدنان وقحطان .

ومن هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والإسبان والفرنجة أولاً ، وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانياً . ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر . لهذا كله كانت السمات السياسية لتلك الفترة هي النزاع والصراع ، والاضطراب والقلق .

٢ - مجتمع مفكك قلق :

وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس في تلك الفترة من أهل الحرب والحكم ، وكانوا في أول لقاءهم بسكان هذه البلاد ، وفي أولى مراحل التعرف إليهم والاتصال بهم . وبالرغم من أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا يقبلون على الإسلام ويحاولون تعلم العربية ، وبالرغم من أن الوافدين كانوا يتزوجون منهم ويعيشون في البلاد معهم ؛ قد كان قرب العهد بالفتح لا يزال يطبع المسلمين بطابع الغرباء ، ويطبع الإسبان بطابع المواطنين ، فكان المجتمع لم يتم توحيده بل لم يتم ترابطه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعكسه المنازعات

والحروب التي كانت أهم سمات السياسة في تلك الفترة ؛ تصورنا المجتمع في تلك السنوات من تاريخ الأندلس ، مجتمعاً مقسماً مفككاً ؛ فيه عرب وفيه بربر ، وفيه إسبان مسلمون وغير مسلمين ، ثم تصوراتنا قبل ذلك مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء ؛ فهو بين جيوش تسير ، وثورات تشب ، ووال يعزل ، وآخر يقتل . وكل هذا من شأنه أن يصيب المجتمع بأنواع من الاضطراب الحسي والنفسي ؛ تعوقه عن كل ما هو في صالح تقدمه ونهوضه .

٣ - الأشعة الأولى للثقافة الإسلامية :

لسنا - بعد ما تقدم - ننتظر ثقافة لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، فالفترة فترة منازعات وحروب ؛ والمجتمع مفكك قلق ، مضطرب الحس والنفس جميعاً . وأغلب الداخلين إلى الأندلس جنود وحكام ، شأنهم المعارك والسياسات لا العلوم والثقافات . ومع ذلك قد عرفت الأندلس في فترة الولاة نوعاً من الثقافة ، كان بمثابة خيوط الفجر الأولى ، التي تؤذن بصبح مشرق . فقد دخل الأندلس في فترة الولاة نفر من الصحابة والتابعين ^(١) ، الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية ، وكانوا يصحجون الجند أو يفدون بعد الفتح ، للإفتاء فيما يعن للمسلمين من أمور الدين ، كتقسيم المغنم وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد ، وتفقيه الناس ^(٢) . وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوائل المدارس الأندلسية ، حين أنشئت أوائل المساجد في إشبيلية وقرطبة وغيرهما

(١) من الصحابة: المنذر . ومن التابعين: موسى بن نصير ، وعلي بن رباح ، وحنش الصنعاني ، وابن يزيد المعافري ، ونشيط بن كنانة العذري ، وحيوة بن رجاء التميمي ، وعياض بن عقبة الفهري ، وعبد الجبار بن أبي سلمة . انظر : المقرئ : نفع ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، والمراكشي : المعجب ص ٩ - ١٠ .

(٢) من المعروف أن عمر بن عبد العزيز بعث عشرة من التابعين إلى إفريقية لتثقيف الناس . والعلاقة كانت وثيقة بين إفريقية والأندلس . انظر : رياض النفوس لأبي بكر المالكي ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

من البلاد ، وأن عنايتهم كانت قبل كل شيء بتدريس كتاب الله وسنة رسوله ، وبلغه القرآن والحديث^(١) .

وليس من شك في أن الحياة الثقافية كانت متواضعة أشد التواضع ، وأنها لم تكن تتجاوز حلقات في بعض المساجد التي كانت قليلة حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين أيضاً بطبيعة الحال .

٤ - البذور الأولى للأدب العربي :

وكما عرفت تلك الفترة نوعاً متواضعاً من الثقافة ، عرفت كذلك قدراً ضئيلاً من الأدب ، وكما وفدت الثقافة المتواضعة مع نفر من العلماء كانوا ممن خدموا الولاية الإسلامية حينذاك ؛ وفد الأدب الضئيل أيضاً مع نفر من الأدباء كانوا ممن عملوا في الولاية الأندلسية في تلك السنين . وكما كان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيوط الأولى لفجر الثقافة الأندلسية ، كان هذا الحظ الضئيل من الأدب بمثابة بذور الأدب الأندلسي الذي سيزدهر بعد حين . وفيما يلي كلمة عن كل من جنسي الأدب :

(١) الشعر :

كان من بين العرب الوافدين على الأندلس في فترة الولاة نفر ممن يقرضون الشعر وقد حفظت لنا المراجع بعض أسماء هؤلاء ، فمنهم :

أبو الأجر جَعَوْنَة بن الصَّمَّة . وهو من العرب الطارئين على الأندلس ، وقد اشتهر بهجاء الصَّمَمِيل بن حاتم رئيس القيسية هناك . واشتهر أيضاً بمدح الصَّمِيل بعد

(١) يستفاد ذلك مما ذكر صاعد في : طبقات الأئم ، حيث قرر أن عناية الأندلسيين كانت فقط بعلوم الدين واللغة حتى توطد الملك لبني أمية (ص ٦٢) .
وانظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٠ - ٤١ .

أن تمكن منه فعفا عنه . وقد قيل إن هذا الشاعر كان في مرتبة جرير والفرزدق ، وأنه لو أنصف لاستشهد بشعره . كذلك روى أن أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسي ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة ، وذلك حين التقى أبو نواس بابن ناصح في العراق (١) .

ومع كل ذلك ليس بين أيدي الباحثين اليوم إلا قليل جداً من شعر هذا الشاعر ، الذي اهتم به أبو نواس ، والذي قيل إنه في مرتبة جرير والفرزدق ، والذي قيل إنه كان يجب أن يستشهد بشعره . ومن هذا القليل الذي حفظ من شعر جعونة قوله :

ولقد أراي من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أفرع^١
والعيش أعيذ ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع (٢)

ومن شعراء تلك الفترة كذلك :

أبو الخطار حُسام بن ضِرَار . . وقد كان من أشراف القحطانيين في الأندلس ، ومن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبدوا فيها . وقد وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥ هـ - ٧٤٢ م أيام هشام بن الملك . وكان شاعراً فارساً ؛ ولذا لقب بعنتر الأندلس (٣) . وهو كسابقه . لم يعثر إلى اليوم إلا على قليل من شعره . فمن ذلك قوله في ثأر أخذه لعزير من قومه :

فليت ابن جَوَّاسٍ يُخَبِّرَ أُنَى سَعِيْتُ به سعى امرئٍ غير عاقلٍ

-
- (١) راجع في أخبار الشاعر : ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ . والمقري : نقح ج ٢ ص ١٥٦ . والضبي : بغية الملتبس . ترجمة رقم ٦٢٢ والحميدى : جذوة المقتبس ١٨٧-١٨٨ .
(٢) ورد هذان البيتان بهذا التحقيق في المغرب ج ١ ص ١٣٢ .
(٣) انظر في أخبار أبي الخطار : بغية الملتبس للضبي ت ٦٨٦ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ١٨٨ - ١٨٩ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٨ - ١٩ ، وأخبار مجموعة ص ٥٦ - ٦٠ .

قَتَلْتُ بِهِ تَسْعِينَ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ جَذُوعٌ نَخِيلٌ صُرِّعَتْ فِي الْمَسَايِلِ
وَلَوْ كَانَتْ الْمَوْتَى تَبَاعُ اشْتَرِيَتْهُ بِكُنْفِي وَمَا اسْتَنْيَيْتُ مِنْهَا أَنَا مِلِّي^(١)

ومن شعره أيضاً قوله في معاتبة للحكام المروانيين على نصرتهم للقيسيين على اليمنيين :

أَفَاتَمُ بَنِي مَرْوَانَ قَيْسًا دِمَاعَنَا وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ تَنْصَفُوا حَكَمَ عَدْلُ
كَأَنَّكُمْ لَمْ تَشْهَدُوا « مَرْجَ رَاهِطٍ »^(٢) وَلَمْ تَعْلَمُوا مِنْ كَانَ ثُمَّ لَهُ الْفَضْلُ
وَقَيْنَاكُمْ حَرَّ الْوَغَى بِصُدُورِنَا وَلَيْسَتْ لَكُمْ نَخِيلٌ تُعَدُّ وَلَا رَجُلُ
فَلَمَّا رَأَيْتُمْ وَقْدَ الْحَرْبِ قَدْ خَبَا وَطَابَ لَكُمْ مِنْهَا الْمَشَارِبُ وَالْأَكْلُ
تَغَا فَلْتُمْ عَنَا كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ لَنَا بَلَاءٌ وَأَنْتُمْ - مَا عَلِمْتُ - لَهَا فُعْلُ
فَلَا تَجْزَعُوا إِنْ عَضَّتْ الْحَرْبُ مَرَّةً وَزَلَّتْ عَلَى الْمَرْقَاةِ بِالْقَدَمِ النِّعْلُ^(٣)

هذان شاعران تردد شعرهما في الأندلس خلال فترة الولاة ، ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عُرفا بقول الشعر في تلك الفترة ، وإنما كان هناك آخرون^(٤) نسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم ، مع الكثير مما نسي وضاع من تراث الأندلس ، وخاصة في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها .

(١) الحميلي : جنوة ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) معركة دارت بالشام سنة ٦٥ هـ في عهد مروان بن الحكم ومعه اليمينيون بقيادة حسان بن مالك الكلبى ضد القيسيين المشايخين لابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري ، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنيين ، وكانت معركة حاسمة دعمت قيام الدولة المروانية في الشرق .

(٣) هذا نص الأبيات في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، مع إغفال بيت أخير ورد ناقصاً هكذا : . . . جبل الوصل وانقطع القوى ألا ربما يلوى فينقطع الحبل
وقد جاءت الأبيات في الجذوة بصور مغايرة قليلا للصورة التي جاءت عليها في كتاب ابن القوطية . وقد أثرت الأولى لأنها أسبق .

انظر جنوة المقتبس ص ١٨٩ وتاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ - ١٩ .

(٤) من شعراء ملك الفترة : بكر الكنائى الذى سأل عنه أبو نؤاس عباس بن ناصح كما سأل عن جموعة بن الصمة السابق الذكر : انظر المقري ج ٢ ص ١٥٦ .

ولإذا جاز لنا أن نتصور خصائص الشعر في هذه الفترة ، فنحن ملزمون بالحدس الشديد لقلة ما بين أيدينا من نصوص ، ونحن مضطرون إلى الاسترشاد بما لدينا من أخبار بعض الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة ، لنعوض بتلك الأخبار قلة الشعر ، ثم نحن مضطرون آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هذا التصور تقريبي ظني لا حقيقى قطعى . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال : إن شعر هذه الفترة ليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس ؛ ففأثروا في الحقيقة مشاركة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده . ثم هو بعد ذلك شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذى كان شائعاً في المشرق في ذلك الحين ، والذى كان من أعلامه جرير والفرزدق . فهو شعر يتناول في موضوعاته المدح والهجاء والفخر والحماسة ، كما رأينا في بعض النماذج القليلة التى حفظت لنا ، وكما تدل أخبار بعض الشعراء ، ثم هو شعر يجرى على تقاليد المدرسة المحافظة Clasica ولا ينعكس عليه من الأندلس أى أثر ؛ فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة ، ولا يَرى في معانيه كثير من تعمق الفكر . ولا يلمح في صورته نصيب من تخليق الأخيصة ، وإنما هو أميل إلى البداوة . وأقرب إلى الخشونة .

وربما كان هذا الشعر أنسب شىء إلى طبيعة الناس وظروفهم في ذلك الحين ؛ فقد كانوا لا يزالون على كثير من بدائهم ، متمسكين بقبليتهم . ولم يصيبوا بعد من الثقافة والتحضر والتأثر بالحياة الجديدة ، ما من شأنه أن يوجه شعراءهم إلى تجارب شعرية محدثة وأساليب فنية مميزة .

(ب) النثر :

ربما لم يكن بين أيدي الباحثين اليوم نماذج ذات شأن من نثر تلك الفترة من تاريخ الأندلس . ولكن الذى لا شك فيه . أن هذه الفترة عرفت بعض النثرين وكان لها حظ ولو ضئيل من النثر ؛ بل ربما كان هذا الحظ على ضآلته أوفر من حظ الشعر . ذلك أنه

كانت هناك دواعٍ للنثر أكثر من دواعي الشعر ؛ فالخطابة كانت ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والتزاع القبلي^(١) . وتتطلبها مناسبات سياسية ودينية مختلفة . ولا يمكن أن نتصور المسلمين في الأندلس قد عاشوا فترة الولاة دون أن يصغوا إلى خطباء ؛ فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الأقاليم الجديدة ليثبتوا المقاتلين ، ويدعوا للنظام الجديد^(٢) .

والكتابة كانت كذلك ضرورة تقتضيها ظروف الفتح والحكم وتسيير الشئون ، وتتطلبها أيضاً مناسبات رسمية وشخصية عديدة ، كعهد يُعطى وصلاح يُبرم ورسالة توجه .

وقد حفظت لنا بعض المراجع قليلاً جداً من كتابات فترة الولاة ، كما حفظت أيضاً بعض أسماء الكتاب القليلين . فما حفظ من الكتابة عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير « لتودمير » أحد حكام القوط . وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصاري عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ونساءهم ؛ ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ، ما تُعبَد ونُصح . وأنه لا يأوي لنا عدواً ولا يخون لنا أمناً ، ولا يكتم خبراً علمه . . . »^(٣)

وبما حفظ كذلك من كتابة تلك الفترة ، جزء من رسالة يوسف الفهري آخر الولاة ، إلى عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس . والمرجح أن محرر تلك الرسالة هو خالد بن يزيد ، كاتب يوسف الفهري ورسوله إلى عبد الرحمن ، حين أراد أن يتألفه ويتفادى خطره^(٤) . وذلك هو الجزء الذي بقي من الرسالة :

(١) انظر ما كان من قول الصميل بن حاتم لأصحابه ، في البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ . وما كان بين الصميل ورجل عارضه ، في أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢) انظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٧٤ - ١٨٥ .

(٣) Casiri : Biblioteca Arabico Hispana Escorialensis II, p. 105.

(٤) انظر : البيان المغرب لابن عذاري - ٢ ص ٦٧ .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش^(١) من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا^(٢) ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض ، والله من ورأهم محيط . فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي إن أردت ، أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ، ولا غيره . . . »^(٣)

ومن الكتاب القليلين الذين عملوا في تلك الفترة : خالد بن يزيد . الذي كان كاتباً ليوسف الفهري أحد ولاة الأندلس .

ومنهم كذلك أمية بن زيد ، الذي دخل الأندلس مع جنود بليج بن بشر ، واتصل بخالد بن زيد فجعله كاتباً معه . وقد اشتغلا بالكتابة حتى أيام عبد الرحمن الداخل . . وعلا له بعض الوقت^(٤) .

وإذا جاز لنا أن نتصور نثر تلك الفترة . فإننا بعد الحذر الشديد والاستعانة بتصوير حال تلك الفترة من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية ؛ نتصوره نثراً يتناول مسائل الدين وشئون السياسة وأمور القبائل في خطبه ، ويعالج العهود والرسائل والتوقعات في كتابته . وذلك لأن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة تلك الفترة وتتطلبه ظروفها . أما الخصائص الفنية لهذا النثر ، فهي خصائص النثر المشرق الذي كان معروفاً في عصر بني أمية . فهو نثر يميل إلى الإيجاز ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف

(١) تأبش : تجمع وتبحث .

(٢) غمصوا : أنكروا واستقلوا .

(٣) انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٤) انظر : إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٧٣٦ ورقة ١٠ ، ١١) .

تلك المقدمات الطويلة والرسوم المرعية والألقاب العديدة ، وما أشبه ذلك مما جاء مع العصر العباسي ، وبما كان من أسبابه اختلاط العرب بالفرس . وربما أيد هذا التصور ما يعرف من أن النثرين - كالشاعرين في تلك الفترة - كانوا جميعاً مشاركة الأصل والثقافة ، ومن شأنهم أن يسيروا على ما عرفوا في المشرق من أساليب . وربما ساعد على هذا التصور أيضاً ، ذلك العهد الذي كتبه عبد العزيز بن موسى . ثم هذه الرسالة التي وجهها يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن بن معاوية ؛ فهما على قصرهما ظاهرتا الدلالة على بعض ما ذكرنا من خصائص النثر في فترة الولاة .

٥ - الأدب المنسوب إلى طارق :

وربما كان من المكمل للحديث عن الأدب في فترة الولاة ، أن نعرض لنصين نسبا إلى طارق بن زياد ، أحدهما أبيات من الشعر يقول فيها :

ركبنا سفينة بالمجاز مقيراً عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تسيراً
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدر^(١)

وثاني النصين خطبة قيل إنه ألقاها في جنوده يحمسهم على القتال بعد أن نزل بهم بلاد الأندلس ، وبعد أن أحرق السفن التي حملته وجنوده من شمال إفريقيا إلى جنوب إسبانيا .

ونص تلك الخطبة هو : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدي عدوكم ، وإن امتدت

(١) المقرئ : نفح ج ١ ص ١٢٤ .

بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ربحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ؛ ولا حملتكم على خطة — أرخص متاع فيها النفوس — أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا . استمتعتم بالألذ الأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستباحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ؛ وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجازكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلك بعدة ، فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلك قبل وصولي إليه فاخلفوني فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون» (١) .

ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد . لكانا أول أدب عربى تردد فى الأندلس ، ولكانا فى طليعة النصوص التى تعتز بها فترة الولاة . ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك ؛ وذلك لعدة أسباب . منها أن طارق بن

رياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير^(١)؛ ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية ،
والأ يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها . فقد ولى موسى بن نصير قيادة
المغرب على الأرجح سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن المعقول أن تكون هذه
السنة هي مبدأ ارتباط طارق بموسى ، وربما بالإسلام والعربية أيضاً ، فإذا كان فتح
الأندلس سنة ٩٢ هـ ، فإن عمر طارق في الإسلام واتصاله بالعربية يكون فترة وجيزة
يستبعد معها أن يجيد طارق لغة العرب إجادة تسمح له بنظم الشعر وإلقاء الخطب^(٢)

ومن أسباب الشك في هذا الأدب المنسوب إلى طارق ، أن المصادر الأولى التي
سجلت حوادث تفاصيل الفتح ، قد خلت تماماً من أى حديث عن هذا الأدب
مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها في باب الأساطير . وقد استوت في ذلك الصمت
عن هذا الأدب ، المصادر الأندلسية^(٣) والمشرقية^(٤) جميعاً . ولم يرد هذا الأدب المنسوب
إلى طارق إلا في بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح ، مثل نفع الطيب للمقرئ^(٥)
الذى أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذى نقلها عنه ، وأورد الشعر معتمداً —
كما قال — على كتابي المسهب والمغرب ، وهما بدورهما متأخران كثيراً عن فترة الفتح^(٦) .
ومن أسباب الشك في نسبة الخطبة بخاصة إلى طارق ، ذلك الأسلوب الذى جاءت
به ؛ فهو أسلوب لم يكن معروفاً في النثر العربى خلال الفترة التى تعزى إليها تلك الخطبة .

(١) وقيل أصله فارسي . والراجح كونه من البربر . انظر البيان المغرب ج ١ ص ٧ .

(٢) وحتى لو فرضنا أن طارقاً كان على صلة بالإسلام والعربية قبل ولاية موسى ، لأن له أبوين في
الإسلام كما يذكر ابن عذارى في البيان المغرب — فإن ذلك لا يتيح له معرفة العربية إلى درجة قول الشعر
 وإلقاء الخطب بها ، لأن أحوال المغرب في تلك الآونة لم تكن تسمح بتأديب .

(٣) مثل : أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

(٤) مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذري .

(٥) وهو مغرب من علماء القرن الحادى عشر هـ .

(٦) المسهب للحجاري . والمغرب لابن سعيد . وهما أندلسيان عاش أولهما في القرن السادس الهجرى .

وعاش الثانى في القرن السابع .

فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد عاشت في عصر متأخر كثيراً عن القرن الأول الذي قالوا إن ابن زياد قال خطبته فيه ، والمعروف أن الخطابة في تلك الفترة كانت كنماذج الحجاج وزياد وقطرى وغيرهم ممن عرفهم العصر الأموى . والخطبة التي بين أيدينا - منسوبة إلى طارق - بعيدة كل البعد عن خصائص الخطابة المعروفة حينذاك ، وإنما هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسي . وربما إلى ما بعد ذلك حيث شاع السجع وكثرت المحسنات .

وشيء آخر قد جاء في نص الخطبة يبعد أن يقوله طارق . وهو قوله لجنده - وكانوا كما نعرف من البربر - « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً » : فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر ، وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عرباناً ، ومن هذا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذي لا يقوله إلا غير عالم بحقيقة جيش طارق .

لهذا كله يرجح أن يكون هذا الأدب المنسوب إلى طارق من وضع بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن فترة الفتح : والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسي وربما بالعصر المملوكي . وقد كان الرواة والقصاص يضعون كثيراً ، مازجين التاريخ بالقصص والأساطير . وقد أحاطوا الفتح الأندلسي خاصة بكثير من أقاصيصهم وأساطيرهم . فأغلب الظن أن هذا الأدب المنسوب إلى طارق بعض ما وضع هؤلاء الوضاعون^(١) . حقيقة قد يكون طارق خطب جنوده محملاً مشجعاً ، وقد يكون تغنى انتصاراته مفخراً مباهياً . ولكن المعقول أن يكون ذلك بلغته البربرية التي كان يجيدها والتي كان يفهمها جنوده .

(١) أما مسألة إحراق السفن فلم ترد إلا في : نزهة المشتاق للإدرسي (ص ١٧٨) وهو من مؤلفي القرن الخامس الهجري . وكل المراجع السابقة قد سكنت عن تلك الحادثة تماماً . ولكن من الطريف أن فاتحاً حديثاً عمل نفس العمل الذي ينسب إلى طارق ، وأكثر من ذلك أنه إسباني . فعند ما أشرف هرناندو كروتيس على شاطئ المكسيك فاتحاً سنة ١٥١٩ أمر بإحراق سفنه التي قدم عليها جيشه من إسبانيا . والمعقول أن يكون هذا القائد قد تأثر بما نسب إلى طارق قبل ذلك بنحو ثمانية قرون .

على أن الشك في نسبة هذا الأدب إلى طارق لن يفض من عظمة القائد ولا من جمال الأدب ودلالته ؛ فلن يعيب القائد البربري العظيم ألا يخطب أو يشعر بالعربية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ البربر في الإسلام . ولن يعيب هذا الأدب ألا يقوله طارق ، وأن يقوله متأخر صور به — على قدر خياله — ما كان من القائد البربري وجيشه حينذاك .

وربما أفاد نفي نسبة الخطبة إلى طارق ، في رد زعم من اتهموا جيوش الإسلام الفاتحة بالطمع والرغبة في السلب والنهب ، لا في نشر العقيدة والتمكين للدين الذي به يدينون . فالمستعمل عن الأطماع التي في هذه الخطبة ، هو خيال مؤلفها ؛ فضمونها لا يعدو أن يكون خيالا لمؤلف أديب لا فكرة لقائد مسلم .